اللغة العربية في مواجهة التحدّي

أ. محمد فارح

ترتفع أصوات هنا في هذه الديّار العربية الإسلامية، وأصوات هناك وهنالك في تلك الربوع العربية والإسلامية القريبة والبعيدة، تتهم اللغة العربية بالقصور، وتشكك في أهليتها للقيادة، وصلاحيتها للسيادة أحيانًا، وتحاربها أحيانا أخرى أو تضايقها برطانات عامية، ولهجات شفوية ميتة، لم يكن لها وجود حضاري أو سياسي في التاريخ الإنساني المعروف، وتتحرّك أقلام حاقدة وألسنة مسمومة فتسبّها، وتذم أهلها، ولا تستحي أن تصفهم وتصفها بأقبح الأوصاف، وهذه الأقلام تتحرك وتلك الأصوات ترتفع كلّما نشط الحديث عن اللغة العربية والإسلام، والتعريب، وتظهر المناهج العلمية، والطرائق الإستراتيجية، والحيل العصرية، والدعوات الرامية إلى تجريد هذه اللغة من مقومات شخصيتها وضوابطها التي تكون بها لغةً وليست لهجة.

ويلتقي خصومها التقليديون في نقطة أساسية واحدة هي البحث عن أي سلاح فعّال يوقفون به حركة التّاريخ، ويزرعون بذور الشك، في ضمير الأمة، ويخلخلون ثقتها بلغتها العربية الإسلامية، ويفسدون رؤيتها التي تغوص في ماضيها وحاضرها ومستقبلها. وينسون أو يتناسون أن اللغة العربية ليست لغة عادية، يختارها الإنسان العربي المسلم أو يرفضها كما يحبّ ويرضى، بل هي لغة مقدسة إجبارية، فضلها الله على جميع اللغات الأخرى، ورسّمها في الكون، فأنطق بها أتباع إبراهيم عليه السّلام وحملة دعوته مدة زمنية طويلة، وبعث محمّداً صلّى اللّه عليه وسلّم من الناطقين بها، وأنزل بها القرآن الكريم، فجعله المعجزة العربية البيانية الخالدة، ووصفه وصفاً صريحاً في عشر سور بأنّه، قرآنا عربي. والسور العشر هي: (**يوسف . الرعد . النحل . طه . الشعراء . الزمر . فصلت . الشورى . الزخرف . الأحقاف**) ومن الآيات التي وصفه بها قوله تعالى: " إنّا أنزلناه قرآنا عربياً " **يوسف /2**، وقوله: " إنّا جعلناه قرآنا عربيا " **الزخرف /3**، وقوله: " كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا " **فصلت /3**، وقوله: " وكذلك أوحينا إليك قرآنا عربيا

" **الشورى /7**، وقوله: " نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين " **الشعراء /195**، وقد بلغه الرّسول الكريم باللسان العربي، وعرّفه العلماء فقالوا: " القرآن هو اللفظ العربي المنزّل على محمّد صلّى اللّه عليه وسلّم، المنقول إلينا بالتواتر من غير تحريف ولا تبديل، ولا نقص، ولا زيادة " ، وهذا التعريف مستنبط من القرآن ذاته، ويقرر أنّ اللغة العربية جزء لا ينفصل من حقيقة القرآن وحقيقة الإسلام، فهي لغة الإسلام والمسلمين الدينية، والوطنية، والرسمية بنصوص قرآنه ووحيه، ولسانهم في الآخرة بتوجيه نبيّه " أحبُّوا العرب لثلاث: " لأنّي عربي، والقرآن عربي، ولسان أهل الجنة في الجنة عربّي "

وإذا كانت اللغة العربية لسان القرآن ولغة الإسلام، ووعاء عقيدته وشريعته فهل يستطيع الإنسان أن يكون مسلما من غير لغة الإسلام ؟ وأن يكون مؤمنًا صادقاً بتحريف لغة الإيمان ؟ أعتقد أن بين الإسلام ولغته ارتباطاً تامًا يستحيل انفصامه، وبينها وبين القرآن تداخلاً اندماجياً يتعذّر إخراجها منه أو إخراجُهُ منها، فالشهادتان: أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله لا تصحان إلا بها، والقرآن لا يكون قرآنا إلا بها، وبعض العبادات لا تصح ولا تقبل إلا بها، ونتيجة ذلك كله أن الإنسان لا يكون مسلما حتى يعرف شيئا منها، ويحفظ ما تيسر من قرآنها، وقد أمر الله المسلمين جميعاً أن يقرأوا ما تيسر منه، وأوجب العلماء على كلّ مسلم أن يتعلّم من اللغة العربية ما يتعبّد به، ويعينه على فهم ما لابد منه في دينه، وممّا قاله الإمام الشافعي في هذا الموضوع:" على كلّ مسلم أن يتعلّم من لسان العربي ما بلغه جهده، حتّى يشهد به أنّ لا إله إلاّ اللّه، وأنّ محمدًا عبده ورسوله، ويتلو به كتاب اللّه، وينطق بالذكر فيما افترض عليه من التكبير، وأمر به من التسبيح، والتشهد وغير ذلك. ومهما يزدد من العلم بالّسان الذي جعله اللّه لسان من ختم به نبوته، وأنزل به آخر كتبه، يكن خيرا له ".

فمعرفة اللغة العربية واجبة على المسلمين والمسلمات، إذن، وجوب معرفة العقائد والعبادات، وهي لغة واحدة، وحّدها الله عزّ وجلّ حتّى تكون عاملاً هاماً في توحيدهم، وجمع كلمتهم على الدّين الواحد والهدف الواحد،و الغايات الكبرى الواحدة، وأعطاها السيادة الكاملة على الوطن الإسلامي والأمة أو الأمم الإسلامية، وجعل حمايتها من التحريف والتشويه فريضة مشتركة على جميع العرب والمسلمين، ويخطئ من يظن أنّ اللغة العربة يمكن أن تستغني عن قواعدها وضوابطها، كما يخطئ من يعتقد أنّ المعاني تتضح من غير التزام بالقواعد والضوابط الواضحة في لسان العرب الصحيح وفي القرآن الكريم، وقد وصف الرّسول صلّى اللّه عليه وسلّم من خرق ضوابطها بالضلال فقال عليه الصلاة والسّلام في ترشيد أحد المخطئين: **(ارشدوا أخاكم فقد ضل)**.

أمّا اللغات واللّهجات الإقليمية والمحلية فليست إسلامية وليست قرآنية، وليست نبوية، لكن الإسلام لا يحرم الناطقين بها من استعمالها في شؤونهم الخاصة، وإنّما يحرّم عليهم أن يتخذوها سلاحاً لطعن اللغة العربية الإسلامية ومضايقتها، ومنع المسلمين من التفاهم والاتحاد أو ضرب وحدتهم، وتمزيق شملهم في هذا الموطن أو في ذاك.

والجزائر عربية مسلمة بينها وبين الإسلام تلازم وترابط لا ينفصمان، وبينها وبين لغة الإسلام ما بينها وبين الإسلام، فمشربها قرآني، واتجاهها قرآني، وعروبتها قرآنية محمّدية، لا طائفية فيها، ولا قبلية، ولا عرقية، ولا جهوية، وأبعاد شخصيتها الأساسية ثلاثة:" الجزائرية، والعروبية، والإسلامية، هذه هي أقانيمها الثلاثة، ومكوّنات وحدتها الخالدة التي تزول بزوال الرّجال، ولا تتغيّر بتغير الأيّام والأزمان، وإذا حاول بعضهم إحداث شرخ في هذا البناء الرباني المتماسك فإنّ مصير محاولاته الفشل والاضمحلال، واللغة العربية هي مستودع هذه الأقانيم أو الأبعاد، غير أنّ اللغة العربية لا تكون لغة ثقافة وأصالة وحضارة إلاّ إذا حافظت على مقوماتها التعبيرية في الألسنة والأقلام العربية، وسهر المسلمون على سلامة تعبيرها وترقيته.